المحاضرة التّدشينيّة

لكرسي كمال يوسف الحاج للفلسفة اللّبنانيّة

أ.د. هدى نعمة

الخميس ١٥- ٢- ٢٠١٨

أيّها الكرام

نحن اليوم عشيّة اختتام المئويّة الأولى لولادة العلم الكبير، الفيلسوف الشهيد، كمال يوسف الحاج، حارس الهوّيّة اللّبنانيّة ومهندسها من منظار فلسفيّ جامع.

ونحن اليوم، أيضًا، في فترة تضامن بين القوى السياسيّة في الوطن، على تنوّع توجّهاتها ومشاربها، بهدف صون لبنان من الشرور والمخاطر الّتي تحدق به، إن خرج أهل السياسة مرّة أخرى عن جلدتهم اللبنانيّة الهوّيّة والقلب والعربيّة اللغة والروح.

ونحن اليوم، أخيرًا، في زمن تكريس "كرسيّ كمال يوسف الحاج للفلسفة اللبنانيّة" نبراسَ نهضة فكريّة آتية... بعد أعوام من الإجحاف في حقّ لبنانيّتنا غابت خلالها طاقاتنا العقليّة، أو غُيّبت، قصدًا أو سهوًا، فافتقرنا إلى من يحمل الحلم، ويعلّي الشعلة، ويحكّم العقل، ورحنا نغرف الفكر من معاجن مختلفة، فأصبحنا كتلة جماعات تتلاصق ولا تتلاحم، تتعايش ولا تتآخى، تتناحر فئويًّا على رفع المتاريس الوهميّة، وتهشّم نعمة الوحدة في التعدّديّة، وتخنق آفاق الغيريّة المُحِبّة.

أمّا اليوم، فمن رحم هذه الجامعة العريقة، ومن قلب صرح الروح القدس الّذي شرّع أبوابه لكلّ طالب علم ومعرفة في اتّجاه الحقيقة، ولكلّ ساعٍ إلى هداية متعقلنة متقومنة في إتّجاه الإنسانيّة الكبرى، نعلن بزوغ "كرسيّ كمال يوسف الحاج للفلسفة اللبنانيّة" مشروعًا كيانيًّا شاءته الجامعة، بهمّة رئيسها الأب البروفسور جورج حبيقة، وبالتعاون الوثيق مع "بيت الفكر–أَسَسيّة كمال يوسف الحاج"، ممثّلًا برئيس مجلس أمنائه قدس الأب العامّ مالك ابو طانوس، والأستاذ ربيع نعمة الله افرام، صاحب اليد المفضال في إطلاق الكرسيّ، فيؤدّي رسالته الفريدة في إعادة إحياء الفلسفة اللبنانيّة، القابعة أبدًا في أعماقنا والباقية، رغم الأوجاع الّتي ألمّت بها، شرياننا الحيّ والمقاوم في

سبيل استعادة ما ضاع بعد عِزّ، وترميم العقل اللّبنانيّ الّذي فُجع في بنيته، وتهافت في عروبته، نتيجة تداعي العقل في ديار الضاد أمام سواطير بعض المتألّهين، وسقوطه في أتّون الأصوليّة والتكفير، وتخاذله أمام سادات "النيرونيّة الجديدة الّتي ترصد المصلّين في كنيسة المهد وتتعقّبهم في ساحة الأقصى".

ثمّ انسحق العقل اللبناني في طاحونة العولمة الكاسحة، وضاع في فضاءات القرية الكونيّة وفي متاهات العصر الرقميَ، وكلّها "عرمة" من التحوّلات الماحقة أبرز سماتها إقصاء الضدّ، ونبذ الآخر في المدى المنظور، كمقدّمة لإلغاء الإنسان نفسه في المدى اللامنظور، والقضاء على كرامته لا بالآلة بل بالإنسان ذاتًا. كلّ هذا يحدونا على التمسّك بالفلسفة اللّبنانيّة خشبة خلاص لنا ولمن يجاورنا، ونافذة مشرقة نطلّ منها على العالم من غير تبعيّة، بل كأصحاب فكرٍ حرٍّ وحقّ يؤهّلنا لصنع القرار الحضاريّ أسوة بالمجتمعات الكبرى الّتي تقدّمت بفضل قوّتها الفكريّة الفلسفيّة قبل قوّتها المادّيّة.

رُبَّ متسائل عن جدوى الغوص في الفلسفة اللبنانيّة، وعن الحاجة إليها، في زمن عمّ فيه التباغض والتقاتل وتهجير شرائح كبيرة من مكوّنات المجتمع الشرقيّ الكبير.

لهذا المتسائل نجيب:

قد استفحل فينا الجهل حتّى امتهنّا التقاعس... فكفى...

قد سكر فينا القمع حتّى الثُمالة... فكفى...

انتهت "ساعة التخلّي" ودقّت ساعة الرجاء. معها سيستردّ لبنان اعتباره كقيمة فكريّة، واللبنانيّون أحقّيّتهم في إعلاء كرامتهم الإنسانيّة وإرساء شراكتهم الفلسفيّة العالميّة.

من هذا الأفق الرحب سينطلق الكرسي، فاتحاً على ذهنيّة جديدة في التعاطي مع الفكر اللبنانيّ بخاصّة، والعربيّ بعامّة.

في هذه المحاضرة التدشينيّة لكرسيّ كمال يوسف الحاج في الفلسفة اللّبنانيّة، يستبدّ فيّ قلق المسؤوليّة عن الكتابة في علم من أعلام الفلسفة جَلّى، انطلاقًا من لبنان، تحت كلّ سماء. إنّه كمال يوسف الحاج، مؤسّس العِمارة الفلسفيّة اللبنانيّة. معه اتّشحت هذه

الأخيرة برونق المهابة وشيء من القداسة، فاستوت على عرش الفلسفة شريكة مرموقة في شَيْد الكنز الفكريّ الكونيّ، وفي دفع الرؤية الإنسانيّة الرحبة قُدُمًا، تجاوزًا لمنطق التعصّب القتّال، والتبعيّة المُهلِكة، وتقويضًا لكلّ ما يعترض استقلاليّة العقل في بناء ذهنيّة فلسفيّة نيّرة، نابعة من الذات أوّلًا، ولكنّها توّاقة إلى لقاء حيّ مع الذات الأخرى بقوّة التفاعلِ بين الفكر والفكر.

أجل، يعتصرني القلق. إذ كيف لي أن أتعالى بريشتي عن المبتذل والمعهود لأشاطر القارئ والسامع، في العمق، ما يشتهيان معرفته عن "الفلسفة اللبنانيّة"، ضالّة كمال الحاج؟

لَئِنْ كان في يقيني أنّ الفكر الفلسفيّ الصحيح إنّما يخاطب الإنسانيّة جمعاء خطابًا عقليًّا ومنطقيًّا، حكيمًا وعميمًا، فإنّي على نفس اليقين، وبشكل لا تشوبه شائبة، بصحّة التنسيب "اللبنانيّ" عند وصف الفلسفة الطالعة من عندنا، إيمانًا منّي بأنّ لبنان لم يخلُ، ولن يخلو، من فلاسفة نبتوا من رحم الأرز الخالد، فجاء فكرهم شامخاً شموخ صنّين، ضاربًا في أعماق الإنسانيّة كما وادي قنّوبين، عابقًا ببخور المعرفة كما المتصوّفين، مغامرًا في يمّ الأفكار لتحرير "أهل الكهف" من سباتهم العميق في سبيل ولادة جديدة تأتي بإنسان يعرف أنّه ليس بإله، لكنّه، بفضل التجسّد، أصبح سيّد قدَره، وصانع أفكاره ، و"معمرجيّ" فلسفته.

عندما تجتاحك الانقلابات السياسيّة الصادرة عن إيديولوجيّات فاتت مدّتها، فزجّت أوطانها في حمّامات دم تهدر الطاقات لتصرفها ضلالًا، وعاثت فيها جهلًا لتجعلها عصيّة على الحداثة ، تجد نفسك متعطّشًا للبحث، في هذه البيئة الموبوءة سياسيًّا، الفقيرة فلسفيًّا، عن بطل يعلو بفكره كلّ رثاثة، فإذا بكمال الحاج يُشرق عليك عقلًا متجدّدًا بمَضاء، وملتزمًا بسخاء، ومحلّلًا بصفاء، ومهندسًا بمِراس، وبانيًا بإباء مجتمعًا جديدًا متحرّرًا إلّا من سلطة العقل والإيمان.

وعندما تشتدّ أزمة الغبن، فتتكاثر الدعوات الى استباحة الكرامة، ورذل الحكمة، وإحلال العصبيّة وثنًا جديدًا يحكم التفاعل بين مكوّنات الوطن، يطلّ عليك كمال الحاج شبكة أمان وسلام، يلجم الانزلاق إلى مهاوي الغرائز، ويبشّر بالتفاهم فعلَ حياة، ويبتر

كالسيف أشواك الوباء المعنويّ، كاتبًا تاريخًا جديدًا لمجتمعٍ جديد شعار حياته رُكنان: المعرفة الذاتيّة، وقوّة الحقّ .

ولد الحاج عام ١٩١٧ واستُشهِد عام ١٩٧٦. بين هذين التاريخين امتدّت حياة سامية تجسّدت تجربتها في فلسفة، بل في رسالة، وفي علاقة حبّ لقوميّة إنسانيّة تبيّن، بعد أربعين عامًا على استشهاد صاحبها، أنّها وحدها الباقية على الزمن.

و"نحن اليوم"، على حدّ تعبير البروفسور أمين ألبرت الرّيحاني، " في محراب هذه الفلسفة اللبنانيّة، و هذا يعني أنّنا في محراب لبنان، و في جوهر لبنان ووجوده، أو في قلب لبنان جوهرًا و وجودًا". وعليه، يتابع الريحاني، ليس "من أسباب تحول دون أن يكون للّبنانييّن فلسفةٌ تحمل اسمهم المادّيّ، وتكشف عن سحنتهم العقليّة، ليتمكّنوا من تحديد من هم وما هم عليه بين شعوب الأرض".

ولئن سلّمنا، مع المُسَلّمين، بأنّ الفلسفة، في توصيفها العامّ، هي عبارة عن "عمارة فلسفيّة متناسقة، متجانسة، متماسكة، جامعة مانعة"، تخاطب الوعي الإنسانيّ في إفصاحها الأصيل عن اختبارات الوجود الإنساني ، فلِمَ نقول، على سبيل المثال لا الحصر، الفلسفة الألمانيّة، والفلسفة الفرنسيّة، والفلسفة العربيّة، والفلسفة الإغريقيّة، والأميريكيّة، والصّينيّة، وسواها، فيما نمتنع عن القول بالفلسفة اللبنانيّة؟

لم تُحتَبس صفة الفلسفة عن الفكر اللبنانيّ؟ لم الزهد بلبنانيّة الفلسفة؟ الكلام في الفلسفة اللبنانيّة لا يعني، بحسب توضيح الحاج، دسّها في دهاليز الانتماءات الضيّقة، بل هو، بعد الاطّلاع الواسع على سياق التفكّر اللبنانيّ الناضج على جمر الواقع اللّبناني منذ كنعانيّته الأولى، مرورًا بفينيقيّته ومسيحيّته وعربيّته وعثمانيّته وصولًا إلى نصلاميّته في خضمّ محيط إسلاميّ واسع، إمكانيّةُ الحسم بأنّ الفلسفة اللبنانيّة، المتقوّية بخبرتها الحيّة والمتراكمة عبر العصور، هي عصب الحياة ومصل البقاء للبنانٍ واثق، مشرق، رائد، رافد ومُرتفِد، في محيطه العربيّ وفي الفضاء العالميّ.

ما الضَيرُ في أن يجيء الفكر ممهورًا بنكهة محلّيّة خاصّة بالتجربة اللبنانيّة؟ ليس في هذا، على الإطلاق، ما يحول دون التحاق الفلسفة اللبنانيّة بكونيّة الفلسفة. على العكس.

ذلك هو، تحديدًا، الطريق المُلوكيّ لهذا الالتحاق. ذلك هو النُضْجُ الحقّ في طرح الفلسفة اللبنانيّة بموضوعيّة، ونزاهة، توازيًا مع لبنان التاريخ. هكذا تكلّم كمال الحاج.

الفلسفة اللبنانيّة، الطالعة من رحم المعاناة الوجوديّة الخاصّة، لا تقلّ أصالة عن أيّ تفكّر فلسفيّ غير ملتصق بمعاناة، هذا إن وُجِد. لا خجل إذًا في أن يسعى الكرسيّ إلى تعزيز التراكم المعرفيّ، ولا خفر في أن يصون الفكر الخلّاق والمبدع عبر العصور، ولا تراجع عن إنزال الفلسفة اللبنانيّة مبدأ اصيلًا يفعل فعله في العقل الاجتماعيّ ويسهم في تعزيز الاحتكام إلى الحسّ السليم في كلّ أمور الحياة.

الفلسفة اللبنانيّة ، حاجة اليوم ورسالة الغد

سينطلق "كرسيّ كمال يوسف الحاج للفلسفة اللبنانيّة"، في أوّل أنشطته الفكريّة، بمؤتمر فلسفيّ شامل عنوانه: "لماذا الفلسفة اللبنانيّة وما الحاجة اليها اليوم؟" الهدف من هذا المؤتمر التأسيسيّ هو ضخّ الحياة من جديد في مجرى الفلسفة اللبنانيّة، واستعادة سياقها التاريخيّ في نقاط ذروتها، علّنا بذلك، في مدى السنين الأولى، نمهّد لقيام جيل واعد من الفلاسفة اللبنانيّين المناضلين الشبّان، المؤمنين بالتفكّر اللبنانيّ الكبير، والعاملين على إنتاج تراث فلسفيّ يستعيد التواصل مع معاضل المجتمع اللبنانيّ، القديمة منها والمستجدّة. هذا المؤتمر سيفتح النوافذ، القدر الأكبر من النوافذ، لبروز جيل من المقاومين، فكرًا وفلسفة وثقافة، يحدثون صدمة بنّاءة في السيرورة اللبنانيّة والعربيّة، ويؤسّسون لحركة واسعة هدفها، بداية، إقصاء كل مسبّبات الإنحلال عن المجتمع اللبنانيّ بخاصّة، والعربيّ بعامّة، إقصاء تدريجيًّا.

هنا يحضرني مشروع الحاج العظيم، الهادف إلى وضع موسوعة فلسفيّة لبنانيّة عربيّة، بعنوان "معالم الفكر الإنسانيّ"، غايتها، كما كتب، "أن نلبنن الفلسفة باللغة العربيّة، لنفلسف لبنان في عالم عربي ينتفض".

لم يتوانَ الحاج عن خوض غمار هذه الملحمة الفلسفيّة الفذّة، فزاحم عقارب السّاعة، يحدوه على هذا الأمر شعور مَكِين بأنّ الفلسفة اللبنانيّة، العريقة الأزمنة، "ينبغي

تركيزها"، كما قال، "في إطاريها الواجبين، العربيّ والعالميّ، كي تأخذ معناها الحقيقيّ وتقوم برسالتها العربيّة العالميّة".

صحيح أنّ شفرة الموت سبقت كمال يوسف الحاج في تحقيق هذا الحلم الجبّار، لكنّها لن تمنع وصيّته الثمينة هذه من أن تغدو منارة لعمل الكرسيّ. نعم، للفلسفة اللبنانيّة رسالة عربيّة عالميّة، وعلينا أن نستعيد لها رسوليّتها المزدوجة هذه، فتحتضن ما يتوجّب أن تحتضن من الثقافات العالميّة، وأوّلها العربيّة، من غير أن تتهاوى تحت مطرقتَي استيراد الثقافات من الخارج أو الذوبان فيها.

سيظلّ "كرسيّ كمال يوسف الحاج للفلسفة اللّبنانيّة" محمولًا بهذا الزخم الرسوليّ في اللحظة التاريخيّة الراهنة، حيث يطغى الخوف من الذوبان، ومن فقدان هوّيّة لبنان الفلسفيّة. بهذا النَفَس الكَمْحَجيّ سيبقى جواز سفرنا مفتوحًا أبدًا على أقاصي الأرض، ولن نخاف على الفلسفة عندنا من أن تشيخ، أو تضمحلّ، أو يتآكلها العفن في بطون الكتب الهاجعة على رفوف المكتبات!

المغامرة خطيرة، ولا تخلو من مطبّات، وتتطلّب إيماناً كبيراً بأنّنا، نحن اللّبنانيّين، الواقعين اليوم بين مطرقة الشرق التكفيريّة وسندان العولمة المُعدِم للتراثات، قادرون على أن نبقى حاضرين علميًّا وفلسفيًّا، لأنّنا أصحاب فكر من إبداعنا ومن تراثنا الانفتاحيّ.

إنّه لمن دواعي اعتزازنا أن نتبنّى موقفًا كبيرًا الحاج كان قد اتّخذه عندما سأل عن انبثاق النموذج اللبنانيّ، إذ أجاب، بنبرة نبويّة، أنّه كان، ماضيًا، من بناة التاريخ، ومن أهل اللماذا الفلسفيّة وأصحاب المواقف العقلانيّة، وأنّه، حاضرًا، من ذوي رواشق الفكر، وشيء بين أشياء العالم.

انطلق الحاج من لبنان في ذهابه نحو إنسانيّته، وإليه رجع دائمًا بإنسانيّته، يقينًا منه "أنّ الفلسفة تستند إلى ما هو كائن... تواكب الواقع. تُلاحِفه. تُجاسِده."

لا محلّ لاستغراب السامع أو القارئ أمام قولة كمال الحاج العنوانيّة: "نعم، ثمّة فلسفة لبنانيّة." فكلّ حرّ يبدأ من ذاته، لا من سواه، بهدف تقليص الجهل الّذي فيه، وتخطّي

اللاثقة بمن هو، والتخلّص من عقدة الدونيّة في الفلسفة، واستطرادًا في السياسة. فالمفهومان، الفلسفة والسياسة، متكاملان ومتواثقان عنده، بعد أن حدّد السياسة بمعناها الكبير. لا سياسة من دون فلسفة، ولا فلسفة من دون سياسة. أمّا السبب عنده فصريح: "الذود عن لبنان".

يدعونا كمال الحاج، في رؤيا باذخة، إلى تلقّف ما يدعوه، هو، "رسالة لبنان الرسوليّة"، وإدراكها تمام الإدراك، كي لا تتهافت معرفتنا في حركة الوجودين، الإنسانيّ والكونيّ. هذه الرسالة ليست في تاريخ لبنان، بل في ما يسمّيه، بتعبير مُنيف، "لبنان التاريخ". دعوة الحاج تفترض، نظرًا، الإيمان بوحدة التاريخ في مساحب الزمان. هذا "التاريخ الجامع هو وحده الباقي". هو "الجوهر. وقد يكون هو الحقيقة الراسخة في المدى المتحرّك".

و لكي يصمد لبنان... ويصمد... ويدوم على عواهن الزمن، يخاطب الحاج ضمير اللبنانيين، فيناشدهم "التحرّر من اللعبة الكونيّة الهاجمة، الكاسرة، الزاحفة على تاريخ وطن... والعودة إلى الفكر المتفلسف، من خارج سياسة أفقيّة عاجزة، ليأتي الفكر بفلسفة جديدة لزمن مختلف، بها ينظر بذهنيّة جديدة متواصلة مع التاريخ المستقيم، لما هو أفضل وأرقى للبنان".

الفلسفة أقدس أقداس المعارف الإنسانيّة

كمال يوسف الحاج، صاحب النظرة الفلسفيّة الجامعة والمستشرفة، يقطع الطريق على التقليد، لا على التراث. فهو يتأنّى في التمييز بينهما ، محافظًا على التراث بالثورة على التقليد، إيمانًا منه أنّ بإمكان تلك الثورة أن ترفع الإنسان إلى مصافّ الآلهة، وأن تخلع على الماضي الإجلال اللائق به.

في هذا الموقف اللافت لكمال يوسف الحاج ما قد يثير الأسئلة. ففي إجلال الماضي ما يشبه إعادة بناء الهيكل في ثلاثة أيّام، وفي الثورة نكهة هدمه... وبين الهدم والبناء معاناة وجوديّة، ودرب آلام، وجلجلة رحمة، وغفران، وقيامة، وتحرّر من جلد قديم حان للإنسانيّة أن تستغني عنه لتدخل عصر التجسّد الإلهيّ، فتنهل منه فلسفتها، وتستمدّ قوّة إستمراريّتها ، لأنّ موضوعه هو الحقيقة الخلاصيّة، تلك الحقيقة الّتي لا تبحث الإنسانيّة عنها، بل تسعى إلى اعتناقها بعد تفسير، وتعزيزها سلوكَ حياة.

يبحث كمال يوسف الحاج، ويفتّت، ويفكّك ما قامت عليه بعض الحقائق الّتي وجدت مأوى لها في أذهاننا، وموقعًا... ثمّ يدفع نحو الإبداع والتمرّد، مؤمنًا بوجود نظام كونيّ قائم، وبالعقل مطلقًا، بمعنى أن "لا يعقل شيئًا من الأشياء ما لم يُلحِقه بالشموليّة الّتي يقوم هو ذاته عليها". أي، بكلام آخر، أنّ "الإيمان بقدرة العقل هو إيمان بنظام العقل، والإيمان بنظام العقل هو إيمان بنظام المعقول. والمعقول هنا هو الكون الشامل، أو المشمول الكونيّ".

نستنتج إذًا أنّ الحاج لا يرى الفلسفة إلّا مرتكزة، جوهرًا، على الإقرار بوجود نظام كونيّ عامّ، وفي مثل هذا الإقرار تكمن معضلة كلّ فيلسوف. كما يعتني الحاج بالنزعة التعميريّة كركن من أركان التفكير الفلسفيّ اقتناعًا منه بأنّ الفلسفة ليست بحثًا عن الحقيقة، بل هي "نشاط عقلانيّ خاصّ عندما يجابه الإنسان مشاكل ومعضلات". وينظر الحاج إلى الفلسفة بصفتها "عرمة ليشيّات" ترافق الإنسان عبر الأجيال والعصور... لأن العقل يسأل ويسائل وفي كلّ عصر، وفي كلّ مكان و زمان، وفي كلّ لغة.

سنعمل بوصيّة كمال الحاج، منتهجين النزعة التعميريّة في التفكير الفلسفيّ، أي النزعة الهرميّة في بناء الأفكار، جامعين من هذا الفيلسوف اللبنانيّ أو ذاك مقولات، وتفكّرات، وتصوّرات، ونظريّات، وآراء، ورؤى، لتشكيل منظومة متماسكة من الحلقات، فنجمعها، كلمة جنب كلمة، تجاوبًا مع النظام الكَمْحَجيّ الشامل. الابتداع الحقّ هو في هذا التعمير للأفكار من رحم الأفكار بغية استنهاض الفلسفة اللبنانيّة كبناء، ولكن بغير حجارة، هندسته "حياكة للأفكار العامّة بمكّوك العقل على نول الوجود الأكبر".

والفلسفة، إذ هي "أوجاع، وأشواق، وغصّات، ونزوع"، تشكّل، في نظر كمال الحاج، أقدس أقداس المعارف الإنسانيّة، إذ لم تبق أمّة من الأمم الراقية، بعد الفينيقيّين واليونان، إلّا ونقلت مذاهبهم وفلسفاتهم، واستجلت دخائل علمهم. ولم يفُت العرب نصيبهم من هذا التراث. فمفكّروهم خالدون، وإن خبت الشعلة عندهم بعد انتقالها إلى الغرب، فتلقّفها، وبفضلها تقدّم،"وتلذّذ بها مطمحًا لأنظاره"، بحسب تعبيرالحاج، ونازل بها "الحقائق الأزليّة"، وساد العالم بقوّة فكره الفلسفي والمعرفي، فغيّر به وجه الأرض، وغيّر توجّه العقل، وجاء بالإنسان الجديد.

أمّا الأوطان العربيّة فكبَتْ، وضَرَبت على أبصارها "غِشاوةً من الجهل الذميم"، فانعزلت عن خارطة التفكّر الفلسفيّ. لكنّ القرن التاسع عشر شكّل محطّة عجائبيّة أخرجت العقل العربيّ، ومعه اللبنانيّ، من تلك المأساة العتيقة، فاستعاد موقعه في الأدمغة، وكانت لنا تلك الكوكبة من الفلاسفة اللّبنانيين، في الزمنين الحديث والمعاصر، الّذين كانوا أشبه بأطبّاء الجراحة الفكريّة، ونِطاسِيّي العمليّة القيصريّة في حقل الفكر العربيّ. هذا الفكر النورانيّ اللبنانيّ نزل معركة المدينة المثاليّة الفاضلة، وحاك لها ثروة من الآيات الفلسفيّة هي بمثابة دستور كونيّ المدى لحياة اجتماعيّة وفكريّة وسياسيّة وعلميّة وإيمانيّة جديدة . ثمّ اقتحم كمال الحاج ساحة الفلسفة اللبنانيّة كشبهِ بطلٍ ميتيّ، فدحرج الحجر عن مقبرتها، نافخًا فيها مقوّمات القيامة، وصارخًا فيها: قومي وافعلي! لبنان والعالم العربي في حاجة إليك. ثمّ وقف ذاته للفلسفة اللبنانيّة، وجسّد لأجلها طاقته في الابتكار الفلسفيّ أفضل تجسيد.

مع كمال الحاج باتت الفلسفة ناشبة في تربة المعاناة الوجوديّة، وغدت هي القضيّة التغييريّة، وعنوان المصير الآتي من عمق لبنان التاريخ.

إنّه نبيّ الحلم بسياسة فلسفيّة، أو بفلسفة سياسيّة ، تتغذّى من التربة المعرفيّة الخصبة التي تتّسع لكلّ التناقضات، وتتقبّل الاختلاف على أنّه تكامل في التجسّد، وتعبّ من التنوّع ، رابطة ذَيْنِك الاختلاف والتنوّع بمبدأ "تعادليّة الجوهر والوجود". "فالكثرة من طبيعة الوجود، وهي توّاقة إلى التوحّد في الجوهر. والجوهر يتجسّد في كثرة الوجود، فإذا بالجوهر الإلهيّ يتجسّد شخصًا حيًّا في يسوع المسيح وكلامًا منزلًا في القرآن (...). و على قاعدة هذا التنوّع الضروريّ في تجلّيات الجوهر تقوم المعيّة الإنسانيّة بين المختلفين، فتتجلّى في وجه خاصّ بين المسيحيّة والإسلام في مؤتلَف فكريّ اجترح له كمال الحاج تعبيرًا أنيقًا صار مأثورًا: "النصلاميّة".

لو عدنا بالتاريخ إلى ما سمّي الإصلاح التربويّ عام ١٩٩٧، لوجدنا أنّ لبنان، لِواحد وعشرين سنة خَلَتْ، قد ألغى الفلسفة بمفهومها التثقيفيّ الرفيع من النظام التربويّ اللبنانيّ، حاذيًا حذو كلّ الأنظمة التربويّة المحيطة بنا. وهكذا خفت صوت العقل الباحث، وتراجع التفكّر الفلسفيّ، وبتّ ترى المجتمعات في مشرقنا أقرب إلى القطعان المطيعة. فلا تمرّد يرتقي إلى مصافّ الثورات الفكريّة الكبرى الّتي ينحسر أمامها

الفتور، بل الموت العقليّ السريريّ، بل عقائديّة كاسحة، قتّالة، حرمتنا لذّة تأسلب الآراء فلسفيًّا، وأمعنت في رَزِّ تركيبة النقص فينا إلى حدّ التضعضع الاجتماعيّ، والمرض النفسيّ، والاستسلام فالاستزلام. وصرنا، من حيث ندري أو لا ندري، من ملّة التابعين، نقتات من الفلسفة فُتاتها. لا نبيّ. لا معلّم. لا مارد فكر. لقد نبذنا بضاعة الفلسفة في لبنان ، فأقعدْنا الفيلسوف. واليوم بالكاد نعثر على طالب فلسفة في الجامعات. ثمّ أبعدْنا من يفكّر ويتفلسف عن مجالس القرار، وعن الإسهام في تدبير حياة النّاس، فبتنا وجهًا لوجه مع سياسيّ لا يتفلسف، أي مع سياسيّ "أعمى"، ومع فيلسوف لا يتسيّس، أي مع فيلسوف "مُقعَد"، كما يقول الحاج.

ما الحلّ إذًا؟

الحلّ أوّلًا، في رؤية كمال الحاج، هو أن تتخلّى الفلسفة عن بُرْجُعاجيّتها، فتتفلّت من تقوقعها المزمن، وتتحرّر من حسب و نسب نخبويين، وتتحلّب ماويّتها من أقلام كُتّابها نحو الشعب، فتنزل الساحَ، وتدخل حياة كلّ النّاس ، وتصبح إكسير حياتهم ، ونفط مدنيّتهم، فتشرّف المرء لأنّها تجعل منه رسمَ إله، و تحكّمه في سير الزمان.

والحلّ ثانيًا، كما يطالب به الحاج، هو وجوب تعليم الفلسفة بقوّة في المنهاج الثانويّ، وباللغة العربيّة. وقد نضيف اليوم، استطرادًا: بل انطلاقًا من الحلقة الثانية في منهاج التعليم الأساسيّ. وهكذا تدخل إلى صميم التلامذة، وهم بعدُ في أوّل نضارتهم الفكريّة، فتصبح شبهَ فطرة محمودة توجّههم في جميع مسالكهم، العامّة منها والخاصّة.

وعلى من يدّعي أنّ اللغة العربيّة قاصرة عن قولبة المفهوم الفلسفيّ، وهضمه، واستيعابه، وبثّه، يردّ الحاج بالنفي القاطع. إنّ إصرارًا كهذا على قصور اللغة العربيّة هو من قبيل الجهل قبل الافتراء: جهلٍ لفلسفة اللغة، الّتي أبدع الحاج في إعلاء أركانها.

نحن مدركون، مع كمال يوسف الحاج، أنّ اللغة العربيّة جسم تعبيريّ حيّ، وقادر بإبداع – على مثال عربيّة الحاج الفاخرة أنموذجًا – أن يضرب في ميادين الخلق الفلسفيّ. اللغة هي القالب الأفخم الذي يحمل الدينيّ والإنسانيّ والعقليّ والتفكيريّ والحسّيّ والنفسيّ والروحيّ، ولا مُسوِّغ للقول بقصورها، أو لزجّها في سجون الحَرْفيّة، أو لنسف كونيّتها.

ميزات الفلسفة اللبنانيّة ودستورها

رأى الحاج، للفلسفة اللبنانيّة، أربع ميزات يجب أن تتحلّى بها:

1. **العقلانيّة**

العقل في اللاتينيّة، يقول الحاج، معناه الميزان الّذي يُعادِل. ووضوح العقلانيّة يشكّل أساس العدالات الاجتماعيّة القائمة في أساس الفكر اللبنانيّ. الغموض، المعاكس للعقل، يفضي إلى التطرّف والجنوح، وهما غريبان عن خصائص اللبنانيّين قديمًا وحديثًا. يطّلع اللبنانيّ على مجمل التيّارات الفلسفيّة التي وَجدت لها، في بيئته، تأصيلًا و تسهيلًا ، فيغربلها، ويستخرج منها ما تستسيغه الذائقة اللبنانيّة الصحيحة، القائمة على ثنائيّة الرّوح والمادّة، كما يفسّر الحاج. وهكذا يلتقي فينا الشرق والغرب بفضل نظرتنا التوفيقيّة إلى الكون.

2. **الواقعيّة**

عقلانيّة اللّبنانيين واقعيّة بهدف الحفاظ على كيانهم السياسيّ الّذي هو كيان قومي حرّ. في هذا السياق ينبّه الحاج اللبنانيين من أخطار فلسفيّة تتهدّد لبنان من الداخل، كمثل النظرة الحلوليّة إلى الإنسان والعالم و الله، الروحيّة منها أو المادّيّة، لأنّ فيها إنكارًا لسرّ التجسيد، واستطرادًا للقوميّة بصفتها تجسيدًا للإنسانيّة. كما ينبّه من أخطار فلسفيّة خارجيّة على لبنان متمثّلة بالقوميّات اللالبنانيّة. فهي، وإن لم تقل بالحلوليّة، إلّا أنّها تشتهي لبنان، وتريده تابعًا لها. لكنّ لبنان "مركوز على الحرّيّة". ولكي يبقى حرًّا عليه أن يطير بجناحين: أن يكون "واقعيًّا في مثاليّته"، و"مثاليًّا في واقعيّته".

3. **الإيمانيّة**

واقعيّة اللبنانيين هي واقعيّة مؤمنة. تلك هي القاعدة الثالثة المطلوبة كي تقوم الفلسفة اللبنانيّة بدورها الفكريّ المنشود. إذ الدين، كما يقول الحاج، "موجود في لبنان منذ ما قبل التاريخ. أمّا اللادين ففرع". ويضيف الحاج مستنتجًا، ومتأمّلًا في واقع لبنان اليوم: "بفضل الدين ثمّة قوميّة لبنانيّة." لذا تستلهم الفلسفة اللبنانيّة الإيمان بالإله الشخص، المعلِن عن ذاته في الكتب المقدَّسة المنزَلة، رافضة الحلوليّة في قسميها. أمّا إذا انهار الدين، بهذا المعنى، "في كياننا الفلسفيّ"، فستنهار الدولة، أي التعبير الأرفع عن حرّيّتنا المجموعيّة ، "في وجودنا السياسيّ". لذا يبان من ضمن رسالة الفلسفة اللبنانيّة "أن تفلسف الدين ليقف لبنان في وجه التيّارات الملحدة".

4. **العربيّة**

السمة الرابعة للفلسفة اللبنانيّة هي أن تكون اللغة العربيّة، لا غيرها، أداتها التعبيريّة، إذا كان لهذه الفلسفة أن تؤدّي رسالتها نحو الشعوب العربيّة، وهذا قدرها. فالعربيّة هي لغة اللبنانيّين الأمّ، والفلسفة اللبنانيّة هي وسيلتهم للتخاطب مع الشرق العربيّ، ومناقشته، والتفاهم معه، والتحاور معه. كما أنّ هذا الأمر يفسح المجال أمام المسيحيّين كي يعيشوا بأخوّة مع المسلمين، ويرسي أصول المعايشة مع الإسلام لا كدين مناوئ، بل كدين للمسيحيّة معه وشائج قربى. لذا كان من واجب الفلسفة اللبنانيّة أن تتصدّى، بالعربيّة، لهذا الإخاء الحضاريّ الذي شاءته السماء ذاتها، وأن تعقلنه لأجل المصلحة اللبنانيّة العليا.

آمن الحاج، إذًا، بأنّ لا فاصل في الغايات الكبرى بين الفلسفة اللبنانيّة والقوميّة اللبنانيّة. "فالمبرّر الفلسفيّ للقوميّة اللبنانيّة"، كما يقول، "هو نفسه المبرّر القومي للفلسفة اللبنانيّة". لذا يتابع فيضيف: "واجبنا الفلسفيّ نحو القوميّة هو نفسه واجبنا القوميّ نحو الفلسفة". هذا الأمر هو الّذي حداه على وضع دستور للفلسفة اللبنانيّة، من أربع موادّ، مستلهمًا ميزاتها الأربع أعلاه. موادّ دستور الفلسفة اللبنانيّة، يقول، هي:

- أنّها عقلانيّة كردّة فعل على الغموضيّة المتطرّفة،
- أنّها واقعيّة كردّة فعل على المثاليّة المتطرّفة،
- أنّها إيمانيّة كردّة فعل على العلمانيّة المتطرّفة،
- أنّها نصلاميّة، أي رافعة لراية الأخوّة بين المسيحيّة والإسلام، ذودًا عن هوّيّة لبنان الدينيّة ورسوليّتة الفذّة، ومن هنا مقام اللغة العربيّة الأوّل في الفلسفة اللبنانيّة.

هذا الدستور سيلهم أعمال "كرسيّ كمال يوسف الحاج للفلسفة اللبنانيّة"، وسيكون المصل المغذّي لديمومته.

برنامج عمل الكرسيّ للسنين المقبلة

أوّلًا: في مجال التربية والتعليم

سيسعى الكرسيّ إلى تحقيق الأهداف الآتية:

1- اعتماد مقرّر جامعي بعنوان "الفلسفة اللبنانيّة في تاريخها و آفاقها"، في إطار مقرّرات الثقافة العامّة الواجبة على جميع الطلّاب في جامعة الروح القدس-

الكسليك، ثمّ السّعي إلى تعميم هذا المقرّر على الجامعات اللبنانيّة الأخرى. لغة التدريس في المقرّر هي العربيّة بعامّة، وغير العربيّة للطلّاب الّذين لا يجيدون اللغة العربيّة ولكنّهم يرغبون في الاطّلاع على الفلسفة اللبنانيّة ابتداء من العام 2019 .

2- إدراج مادّة "الفلسفة اللبنانيّة" في البرامج الجامعيّة لدرجتي الإجازة والماسترز في جامعة الرّوح القدس الكسليك، 2019، والسعي إلى تعميم الفكرة لدى المؤسّسات الجامعيّة اللّبنانيّة كافّة.
3- العمل مع الهيئات المعنيّة على إدراج مادّة الفلسفة اللبنانيّة في المناهج الرسميّة للمدارس اللبنانيّة .
4- إطلاق سلسلة مبسّطة للأحداث حول الفلسفة، تكون مطعّمة بالفلسفة اللبنانيّة، وتصدر بصيغة كتب أو وسائل سمعيّة-بصريّة، كي يتذوّقوا التفكير الفلسفيّ ويتدرّبوا على امتلاكه وصقله منذ اليفاعة، 2018 /2019.

يرى الكرسيّ ان أولويّة هذه المشاريع التربويّة ترتبط، أوّلًا باستعادة لبنان وطنًا رائدًا في الثقافة. ومصدر هذه الريادة المنشودة فكرٌ فلسفيّ لبنانيّ يوضح الرؤيا الصحيحة لكيان لبنان ولرسالته الفذّة القائمة على تعزيز الميثاقيّة الوئاميّة بين عائلات الوطن الروحيّة.

ثانيًا: في مجال الأبحاث

أ- المؤتمرات الفلسفيّة الدوريّة بإشراف الكرسيّ

في السنة الأكاديميّة الأولى للانطلاق في هذا الباب، سيقيم الكرسيّ ثلاثة مؤتمرات:
المؤتمر الافتتاحيّ بعنوان: **لماذا الفلسفة اللبنانيّة؟**

- مؤتمر فكري ثانٍ حول فلسفة كمال يوسف الحاج،
- مؤتمر فكريّ ثالث حول فيلسوف لبنانيّ يعيّنه المجلس الاستشاريّ التابع للكرسيّ،

في كلّ سنة أكاديميّة تتلو السنة الأولى، سيقيم الكرسيّ بشكل منتظم موءتمرات وندوات، وبرامج تدور في فلك الفلسفة الكمحجية، وفلسفة اللبنانيين والمشرقيين، وفلسفة المفاهيم في الفكر اللبناني.

يتعهّد الكرسيّ طباعة جميع أعمال المؤتمرات في سلاسل خاصّة به.

ب – رسائل الماسترز والأطروحات الدكتوراليّة

سيشجّع الكرسيّ على وضع رسائل ماسترز وأطروحات دكتوراليّة، في جامعة الروح القدس-الكسليك، حول فلسفة كمال يوسف الحاج أو حول الفلسفة اللبنانيّة في جوانبها المختلفة، ومواكبة العمل فيها كما المساعدة في الإشراف عليها، ثمّ دعم إصدارها العلنيّ في مؤلّفات. كذلك، سيشجّع على وضع هذه الرسائل والأطروحات في جامعات أخرى، ويدعمها عند الطلب.

ثالثًا: في مجال الترجمة

سيلعب الكرسيّ دورًا محوريًّا، بالتعاون مع "بيت الفكر-أَسَسيّة كمال يوسف الحاج"، في ترجمة آثار الحاج الكاملة، تدريجيًّا، إلى اللغتين الإنكليزيّة والفرنسيّة، ولاحقًا إلى لغات حضاريّة أخرى، منها الإسبانيّة، والبرتغاليّة، والألمانيّة، والإيطاليّة والروسيّة، تمهيدًا لنشرها تباعًا.

رابعًا: إنشاء المجلس الاستشاريّ للكرسيّ

سينشئ الكرسيّ، بحسب وثيقته التأسيسيّة، مجلسًا استشاريًّا من ذوي الاختصاص لمعاونة أستاذة الكرسيّ، على أن يتألّف من أعضاء شرفيّين ومن أعضاء عاملين، بعد الاتّصال بهم وإطلاعهم على الدور المحوريّ الّذي سيضطلعون به في إطار مشاريع الكرسيّ، إن لجهة الاستشارة في كلّ ما يتعلّق بنشر الفلسفة اللبنانيّة وتعزيز حضورها، أو لجهة المشاركة في مؤتمرات الكرسيّ وأنشطته الأخرى.

.